الغايات

— ٢ —

والغايات أنواع متنوعة : فهي مادية أحيانا ، وهي خلقية تارة ، وهي مزيج منهما طوراً وذات طريق مقيدة حينا ، وصاحبة طريق متدرجة حينا آخر ، وهي بعيدة المدى لأن الطمع يحدوها ، وذات آجال لأن التنافس يذكيها ، وهي بدنية كذلك . فالغايات المادية سبيل التناحر بين الأفراد والأمم ، مالم تحط بسياج من تقوى الله ونبذ الأثرة والاعتدال .

وكم أثارت على الرعاة الرعايا ، وكم توارت الخبايا بأسبابها فى الزوايا . وهل المال إلا فتنة لما تملك النفوس من كل شهوات الدنيا بهرها هزا إن شاء ، وبحرها حزا إن شاء . أوتيه قارون فطغى وقال إنما أوتيته على علم . واختص به سليمان عليه السلام فلم ينقصه شيئا من ورع أو حلم ، وأبى نبي الرحمة وسراج هذه الأمة أن يبقى عليه ، وتلك حكمة عمرانية يأخذ منها كل عامل على قدر استعداده

وليس فى المال سعادة الآخرة عند المتصوفة فقد جعلوا وسائلها ثلاثا : الفضائل الخلقية ، والفضائل النفسية ، والفضائل الخارجية ومنها المال . وقالوا إنه لايصلح آلة ووسيلة إلا بالإضافة إلى المقصود وقد تكون الاضافة محمودة وقد تكون مذمومة وأنشدوا :

العيش ساعات تمرُّ وخطوب أيام تكرُّ
وارب حتف سائقه ذهب وياقوت ودرُّ

ويلوح لنا أن الغايات المادية ترتبط أيما ارتباط بالخلقية منها والبدنية لحاجتها إلى الخلق القويم والعقل السليم فبدونهما تصبح معطلة كاسدة ، والا فقل لى بربك ماذا يستفيد المجتمع الانسانى من ذى مال كدّس ماله ، فاكتمى من الدنيا ناحية قصرها على ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى ، والمجتمع مريض تتجدد أمراضه ، ومحتاج لاينتهى احتياجه . فمروجة كمال الأمة ذروة لايصعد اليها إلا الأمة بمجموعها . ولو أعد كل إنسان نفسه قسام بنصيبه فى هذا الصعود لزكى عن مجهوده . وما الحكومات إلا أفراد من مجموع الأمم تحتوى رؤوسهم الخير لا كله ، والاصلاح لا كله ، من أجل ذلك لاتباشر الحكومات بالحاجات الملحة ، ولا تدفع الغوائل لأنها حكومات لحسب : فهى غير منقطعة عن الشعوب وأنها لتغرق فى استمداد أفرادها ، والاقتباع بما فيهم من قوة مادية وأدبية .

ومن أبعاد الغايات الثلاث ، تتولد الغاية التعاونية البعيدة . وهى لعمام شأنها فى بناء

المجتمع الانساني ورفاهيته دما اليها المدين الحنيف ووضعتها الامم المتحضرة اليوم موضع البحث والتقدير .

ولا أبالغ أيها القارىء إذا قلت لك ان الغايات محدودة الأنواع مرسومة الأوضاع من يوم خلق الله الانسان الأول فدرج فوق الأرض . فالغايات إلا وحي النفوس ، والنفوس مقصدها من الدنيا ومرماها واحد . ولم تتغير على النفوس المرامي والمقاصد إلا بقدر ماحش من الزمان وكر الجديدان .

وأي نفس لم تعلب الغايات من أنفها الى يانها ؟ وفي أي العهود وقفت بالنفوس غاياتها حتى ولو من قبيل استعراض لوحات الأماني ، والتخيلات الفكرية ؟ . ولا تفترق النفوس بغاياتها إلا عند تحقيق أحلام هذا ، واخفاق ذاك ، . وما يدريك أن ماوصلنا ونصل اليه الآن ويعد الآن من افنان في غاياتنا المتخلفة لم يكن وليد الفكر في هذا الشطر من الحياة . لعل قرونا سبقتنا به إلى مدى لن نشهده ، وجيال لن نعهده ، ثم انقطعت عنا أخبارهم ، وبليت في جوف الأرض آثارهم ، فكان القدماء بالنسبة اليهم جديدين . ولا أصدق أن الأرض يوم عمرت في أول عمرانها كانت خالية من هذا النظام والروح . وهل سكنتها أشباح لا أرواح فيها ولا غايات في أرواحها ثم قضت نحبها وجر عليها العفاء ذيله ؟ كلا فمتى كانت الأرواح من جوهر واحد ، فان تركيباتها متحدة أو متقاربة ، وتزواتها متماثلة أو متشابهة .

وقد تكون الغايات في عصر أساسا للأخرى في عصر آخر . وقد يخفى الكثير منها لطول الأمد .

وأستطيع أن أقول لك إن الغاية المادية الآن تقطع بالعالم مرحلة خطرها داهم ، وها هي تتضارب مع الغايات الخلقية ، لو طغى تيار الأولى على الثانية ، وهو ما ستتمخض عنه الحوادث وتتكشف عنه الأيام على طولها ، فستكون نهاية هذا الطغيان ، أن يبيد الأبرار ويقف التيار ، لعدم صلاحية نظام العمران لتغلب أية نزعة على ماهو مقتضى حال السكون من النزعات الأخرى التي تتنازع بعضها كي تنفرد بالكون واحدة منها ، وعندها يتلفت العالم فلا يرى أحق به وأهله سوى الالتجاء إلى قانون السماء ، لعجز القوانين الوضعية عن تدبير شئون الخلق ، كصاحب ثراء غره ماله ، وخدعه يمنه حتى تلقاه محسه بوجه قبيح ، فاذا المال شقوة وإذا هو اهتدى واستبصر وأيقن أن لاخلاص له عند عجز قواه سوى الركون الى الله . وسرعان ماتقدم على هذه الأغراض الدينية ذات العلم الخلاق والخالية من النفاق فاما ازيد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض

وموعدنا المقال التالي

الراهبي